الأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٩ —

« أشكر للأديب الفاضل - عبد القادر جنيدى بحمص — رأيه فى هذه الفصول التى أكتبها من تاريخ المرحوم الرافعى ؛ كما أشكر لغيره من الأصدقاء الكرام الذين رأوا فى هذه الفصول ما يحملهم على الحديث عنها فى صحف مصر والأقطار العربية ناقدين أو معجبين أو مقيمين ...

« على أن اعتراض صديقنا الأديب (جنيدى) على السبب الذى نسبنا إليه مقالات « الانتحار » لا يغير شيئاً من حقيقة ما كتبت ؛ فان سببها هو الذى ذكرت فيما سبق ؛ أما الرسالة التى يقول الأديب الفاضل إنها وردت إلى المرحوم الرافعى من حمص وأشار إليها فى الاستطراد المنشور بذيل كلمته المنشور فى العدد ٩٥ فقد جاءته اتفاقاً فى الوقت الذى كان يتهيأ فيه لكتابة مقالات الانتحار لسبب سابق ، وأحسب الرافعى قد حرص على الاشارة إلى هذه الرسالة فى ذيل كلامه ليصرف ظن بعض القراء عن صديقنا الاستاذ (م) الذى كان نبأ شروعه فى الانتحار بين الذيوع والكتمان ، حتى لا يؤذيه فى وقت هو مسئول فيه أن يخفف عنه ، إذ كانت نزوة يحرص على كتمان خبرها - وما تزال رسالة الرافعى إلى صديقه (م) محفوظة لديه كذلك ، وعلى هامش هذا الجواب إشارات بقلم الرافعى إلى جمل وعبارات من هذا الجواب نقلها الرافعى بنصها فى الجزء الرابع من مقالات الانتحار ؛ وكان الاستاذ (م) قد اشترط على الرافعى حين كتب إليه جوابه أن يرده إليه بعد أن يقرأه لأن فيه بعض سره ، فوفى له الرافعى بما شرط ، فاجتمعت — بذلك — الرسالة وجوابها عند الاستاذ (م) عافاه الله وفسح له ! »

(م . سعيد)

المشكلة[1]

استملى الرافعى موضوع « المشكلة » من رسائل قرائه إليه وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل ... وهى كانت أول صلته بالمرحوم الرافعى ولم يكن لقيه من قبل ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنين : هو وهى ؛ فصارت من بعد مشكلتهما ومشكلة الرافعى معهما إذ لم يجد لها حلا . ولقد شغلته هذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم انصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابها بصاحبها وصاحبته . وقد كتب الرافعى ما كتب فى هذا الموضوع ، ثم مضى وخلف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدتها ...

كان ذلك فى الخريف من سنة ١٩٣٥ حتى جمعتنى ظروف العمل بصديق الأستاذ كامل فى إحدى مدارس القاهرة ؛ ولم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعنى كل السر ...

... فقد أمه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها فى بيت أبيه وكان أكبر ثلاثة إخوة ، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معانى الرجولة وما يزال فى باكر الشباب. ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير فسمّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دوراً فى هذه القصة فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب ... ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبغي أن يكون ؛ وكان يبغضها بغض الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية ، فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ، وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهيئ نفسه ليكون من أساتذة (العلوم) فانه كان ولوعاً بالأدب مشغوفاً بعطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ورقة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب في قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى الملحمة ...

وأحبها وأحبته فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها، وما كان لها ..

(١) وحى القلم ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٩١

وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعما بالحب ويحققا المثل الذى ينشدانه من زمان ؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة .. فما يذكرها ولا يفكر فيها ..

وكان نائما يحلم حين ترامى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ، فما وجد أبوه وسيلة إلا بتعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاء بوعد مضى فى ذمة التاريخ ... !

غضب الفتى واحتج وثارت كبرياؤه ورجولته أن ينزل على رأى أبيه فى شأن هو من خاصة شئونه ؛ ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد أرغمته على إرادته ، وساقته فى عمامة إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها فى السيارة من ليلته مرغما إلى بيته في القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هى بنت خاله ، وهى زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ؛ ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ ولكن فتاة أخرى تنتظر ؛ وإن عليه واجبا تحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنحها نظرة أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار فى القاهرة ... كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبته التى فتنته واستولت عليه ؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حريا أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التى كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سجانه الذى يحرمه أن يستمتع بالحرية التى وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأرثت فى نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ... !

وعاشت فى بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف : لا يقاسمها الفراش ، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا فى الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفى المساء حين يعود إلى داره قبيل منتصف الليل ، وما كان بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التى تؤجج فى صدره ، والحسرة التى تتسايل دموعا من عينيها ، وإلا هذه الخادم التى تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها ...

ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبته والاختلاف إلى ملتقاهما ؛ على أن ذلك لم يزده إلا ولوعا بحبيبته وتبرما بزوجته ..

ومضت الأيام تباعد من ناحية لتقرب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذى وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل ... فمضى يدبر أمرا للخلاص من هذه المشكلة ، ولكن المشكلة زادت تعقيدا على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل ..!

كان كل طريق يفكر فيه للخلاص محفوفا بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجه ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ، وليس فى استطاعته أن يجمع على نفسه هذين ؛ وكان تفكيره فى ذلك هما ثالثا يضنيه وينهك أعصابه ويمزق عظامه !

وكتب إلى الرافعى يستفتيه فى مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعى ؛ وفى مساء اليوم التالى كنت فى مجلس الرافعى بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم ينض غلافها بعد ...

وقرأ الرافعى الرسالة ثم دفعها إلىّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدي قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ، وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأيي »

وأطرق الرافعى هنيهة يفكر وفمه إلى الكركرة (الشيشة) كما هى عادته حين يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إلى قائلا : «تعرف؟ إن صاحبك لمفتون بصاحبته إلى درجة الجنون والسفه ، وما تنحل هذه المشكلة إلا أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ، وأن يكون له سلطان على هواه ، وهيهات أن يكون له ! فما هنا إلا وسيلة واحدة ترده إلى رشاده فتنحل المشكلة ...»

قلت : « فما هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان — فتفرق بينهما ... أتراك تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فاذا بدا له من سيئاتها ما يتنكر ، وإذا بدا لها ... انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادما ، وإن مرور الأيام لخليق أن يؤلف بينهما من بعد ! »

قلت : « فهمت ، ولكن ماذا ترانى أقول حتى أبلغ من

نفسه ومن نفسها ما تريد ؟ وهبني عرفتُ أن أقول له فمن أين لي أن أستطيع لقاءها فأتحدث إليها ؟ »

قال : « اسمع : أتراها تقرأ ؟ »

قلت : « إنني لأعرف مما حدثني عنها أنها قارئة أدبية ، وأنها من قراء الرسالة ، وقد كان فيما أهدى إليها كتاب «أوراق الورد » وأحسبها تنتظر ما تكتب في هذه المشكلة ؛ فقد حدثها صاحبها أنه كتب إليك ...»

قال : « حسن ! فسأجرب أن أكون شيطاناً بينهما ، بل ملَكا يحاول أن يرد الزوج الآبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية ..!»

* * *

وكتب الرافعي المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها أن يتنقص صاحبَ المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند صاحبته ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه ودس فيها ما دس مما يوهمها أن صاحبها هو كاتبه ؛ وإن فيه لما يعيبها ويثلبها ويضعها بازاء صاحبها موضعاً لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه في الرأي ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد في تصويرهما الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في محكمة الرأي العام ، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يري من القراء ...

ولقيت صاحب المشكلة من الغد ، فسألني : « هل رأيت الرافعي ؟ »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتي إليه ! »

قلت : « بلغته ! »

قال : « وما ذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيه في الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بيني وبين الرافعي من حديث وما دبّر من خطة ... ونشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبي غاضباً يقول : « كيف صنع الرافعي هذا ؟ » لقد تحلى من القول ما لم أقل . أترانى قلت عنها كما يزعم : لقد خاطتني بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت ...! لقد ساءها ما تحلى الرافعي من الكلام ، وقد تركتها الليلة غاضبة لا سبيل إلى رضاها ...! »

وتحقق للرافعي بعض ما أراد ، وانثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم في هذه المشكلة ، وجاء فيما جاء من الرسائل ، رسالة من صاحبة المشكلة نفسها ...

وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقّياً حسنا ، ومضى يتحدث عنها حديثا ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ، ولكنه إيحاء ، إيحاء إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس حبا وإن زعمت لنفسها هذا الرأى ؛ ولكنه شيء يشبه أن يكون صورة عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به ... ثم مضى يفسح لها الطريق للفرار من هذه المشكلة بالإيحاء والإغراء والحيلة ...

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة .

وفرغ الرافعي من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت ثلاث سنين وفي الأتون ثلاثة قلوب تحترق ... وعلى مقربة من النار صبي يحبو ينادي أباه ، وأبوه في غفلة الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها عنصر جديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلُّها على يدي هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ثلاث ، أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة في أتون الشهوات ...!

ومعذرة إلى صديقي الأستاذ كامل ... !

« شبرا »

محمد سعيد العريان